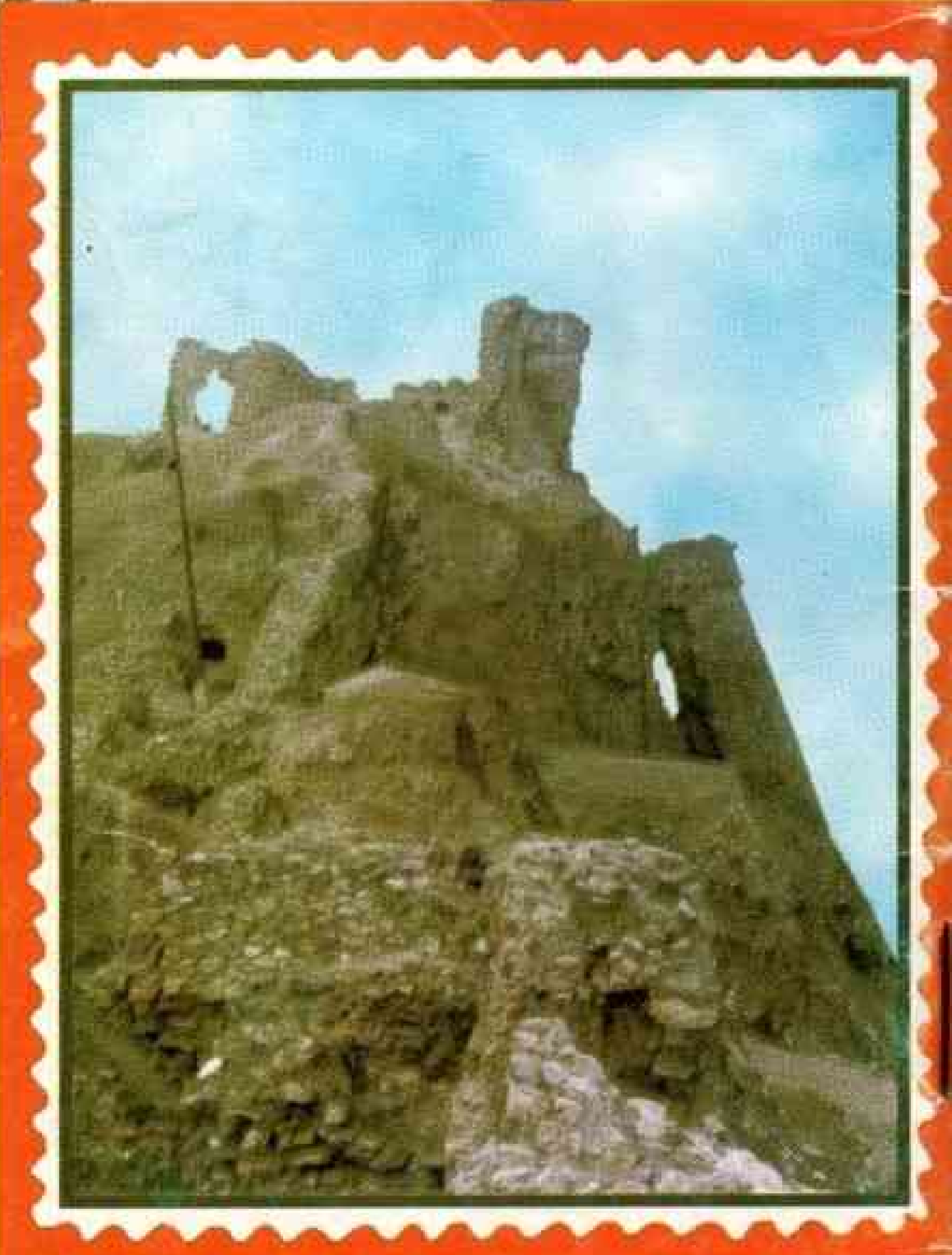
قصة

حصار الموصل

رجب ١١٥٦هـ

أيلول ١٧٤٣م

رسالة الى الأجيال



رسالة الى الأجيال

عمر محمود عبد الله



رسالة الى الأجيال

٢٦٢
ع٨٤ عمر محمود عبدالله
رسالة الى الأجيال / عمر محمود عبدالله
. — بغداد : شركة مطبعة الزهراء ، ١٩٩٩
ص ؛ ٢٤سم
١- الاخلاق الاسلامية ٢ - الوعظ والارشاد
ا - العنوان

م . و
٨٠ / ١٩٩٩-

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد (٨٠) لسنة ١٩٩٩


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وبعد :

فالتاريخ سجل الأعمال والشاهد على الرجال ، وفيه الدروس والعبر من حياة القادة والشعوب ، وهذه صفحة مشرفة من تاريخ مدينة الموصل ، ووقفتها البطولية ، وصمودها ، أمام الغزو والحصار ، بالرغم من قلة الموارد والرجال ، وقد عرضتها باسلوب قصصي محبب ليستوعب معانيها ومغازيها شبابنا وشاباتنا ، ومن اراد التأصيل التأريخي والتفاصيل فعليه بمراجعة المصادر الآتية التي استقيت منهاالمعلومات التاريخية .

١- منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء / ياسين العمري . تحقيق سعيد الديوه جي ، الموصل ، مطبعة الهدف .

٢- تاريخ الموصل / سليمان الصائغ : القاهرة ١٩٢٣ .

٣- تاريخ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / بغداد .

٤- الموصل في العهد العثماني فترة الحكم الجليلي / عماد عبدالسلام رؤوف .

النجف / مطبعة الاداب ١٩٣٥ .

٥- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق / على الوردي - بغداد / مطبعة رشاد ١٩٦٩ .

اللهتعالى نسأل ان يتقبل منا صالح الأعمال .

المؤلـف

كان عمري عشر سنوات، عندما فرحت من كل قلبي يوم اشترى أبي لي حماراً صغيراً، لا يعلوعليّ كثيراً، وأستطيع ركوبه لم اكن أدري سبب شرائِه . لم أفعل شيئاً استحق هذا التكريم ولم يسبق لأبي ان كرّمَ أحداً من إخوتي. لأنه لا يملك شيئاً حتى يهبه لغيرهِ. يكاد لا يجد أحياناً قوتَ يَومه وظننت أنه اشتراه مَسلاةً لي لاني اكبر اخوتي، وكنت اثيراً عند أُمي وقد توفيت من قريب. وزادني دهشة أنه اشترى لي سروالاً فضفاضاً . . . وحزاماً جلدياً عريضاً . . وحذاءً يَمنياً احمر، وقد كنت طيلة سَنواتي العشر حافياً حيث تعودت قدماي ذلك. فأصبح أمراً لايثير غضبي او يضايقني. لم يمضي على فرحتي إلاّ بقية النهار وسحابة الليل وفي الصباح أيقظني مبكراً ، بل إنتزعني من فراشي إنتزاعاً رغماً عني . . لكنه حين اصطحبني معه الى السوق كنت نشواناً بصحبةِ حماري الصغير وملابسي الجديدة. وكأني رجل مثله، اقود حماري من اليمين ومن الشمال . . واحياناً اقفز على ظهره، فقد تعوّدت القفز على حمير الرعاة، عند مرورهم عبر حيّنا ذاهبين الى المرعى صباحاً. وعند عودتهم كذلك، كنا نستمتع أيّما استمتاع عندما نستبق القفز على ظهر الحمار ، قسم منا يسقط على الأرض فنملأ اشداقنا ضحكاً، ونتندّرُ اذا انكشف ثوبه، مشيت خلف ابي كان لايلتفت اذا مشى وكأنه تمثال يتحرك الى الامام فقط وكأنه يقيس الأرضِ بخطواته البطيئة الرتيبة فقد تجاوز عمره السبعين عاماً، واثقلتهُ هموم الفقر والحاجة. وزاد من عمره موت امي التي فقدها وهو في أمَسّ الحاجة اليها . فتحمّلَ اعباء الحياة وتكاليفها في البيت وخارج البيت. وهذا ما لايستطيعه

بحال. وكان مما يثقل مشيته، حذاؤه القديم الذي كلمّا تمزق جزء منه رتقه فيزداد وزنه. فكان كقائد مَغلوب أُفلت الزمام من يده ولم يعد يتحكم فيه فأسلم نفسه للزمن، كنت الهو خلفه كما اشاء ثم الحق به من قريب، مِما أتاح لي قدراً من الحرية، حال كل الآبناء الذين يولدون من اباء كبار. عاجزين عن تدبير أنفسهم فضلاً عن مراعاة اولادهم، او صحبتهم، وقد اتاح لي هذا المولد التعامل مع البيئة ومفردات الحياة، واكتساب الخبرة والتجربة والاعتماد على النفس، وتحمل المسؤولية، وكأني ابن العشرين كنت امشي خلفه بارتباط مصيري وبلا اعتراض.

وعند ارتفاع الشمس وصلنا نحن الثلاثة الى سوق ضيقّة سوداء أرضاً وجدراناً وباعة. كان منظر تلك السوق غريباً حقاً فكل ما فيها أسود حتى البضاعة. ولم اكن قد شاهدتها من قبل. فهي اشبه بدهاليز السجون التي يودع فيها عتاة المجرمين، هكذا وقع في نفسي. أو هي مكان تعس لايدخله الا المضطر. كل ما فيه كئيب ومثير للآسى. وقفت الى جانب ابي اسمع وأرى ولا اتكلم ولا ادري ما يفعل بي. عرفني ابي على احد تجار الفحم بافتخار بادٍ قائلاً: هذا (شاحوذْ) ابني سيعمل حمالاً عندكم. صغير لكنه ذكي وقوي.

وبالرغم من افتخاره بي أبت البسمة ان ترتسم على شفتيه وكأن عضلات وجهه قد تجمدت، فلم تعد لها قابلية على الانفراج، او ربما لكثرة ما تَلَقَّتْ من لطمات الحياة، فلم يعد يفرح لشيء. أو يأسى عليه: دار بي على الفحامين جميعاً. وعلمت انه كتب علي ان أدفن صباي بين اكداس الفحم. وان لا

جدوى من وراء الأمل او البغض اوالتوسل كل ذلك لن يبعدني عن هذا الدهليز المقيت.

ولكن عزائي كان باللّعب مع حماري. وصبيان السوق. وتمرسّت على العمل. وتعرفت على كل التجار. وكنت مصدراً لأُنسهم بحركاتي البهلوانية مع حماري.. اقف على ظهره وهو يمشي او اقفز من بين قوائمه بخفة لا يطأني فيها.. وقد دربت الحمار على السلام عليهم بأن يرفع قدمه الأمامية اليمنى وقد اسميته بأسم (وردان) فاقول له سلم على عمي ياوردان، فيرفع قدمه فيتضاحك التجار ويمنحوني(أقشة)(١)ويفضلوني على غيري من الصبيان. فيمنحوني فرص عمل اكثر. كنت اعمد الى غسل دكاكين التجار قبل الغداء، ثم اشاركهم طعام الغداء لأوفر وجبة لأخوتي ايام الكساد، سعدت معهم وسعدوا معي وكأنّ روحاً جَديدة دخلت سوق الفحامين. بالرغم من سواده وكآبته، وقد ادركت بالفطرة مع صغر سني ان اعيش كما أنا. وأن ارضى بواقعي طالما لايوجد الافضل منه، ولا استطيع تغييره. وكان كل من حولي مثلي، اوأحسن قليلاً، ساقتهم تكاليف الحياة الى حيث لايريدون. اصطحبني أبي في عملي عدة ايام. ريثما تعلمت أَزِقَّة المدينة المتعرجة، المتشابكة، وكأنها امعاء ملفوفة على بعضها. طويلة ضيقة وقناطرها مسقفة مظلمة يروون عنها قصص الجن المخيفة. ثم اعتزل أبي السوق، وبقيت أروح وأغدوكل يوم، وصرت رب الأسرة الصغير. اضع القروش التي احصل عليها في

(١) الأقشة: هي عملة البلد المحلية وقتها

يد أبي وأقبلها، فيترضّى عني ويدعو لي، فأفرح بدعائهِ وايقنت بأن أبي لايخلو من الحكمة رغم بساطته . . . دارت الايام ومرت عدة سنوات، استويت على عودي وتدفقت دماء الشباب في عروقي، شعرت برجولتي، بقوتي واقتداري . . لم يلبث ابي ان توفي في يوم نحس، هبت فيه عاصفة رملية حجبت ضوء الشمس وقد انشغل الناس بأخبار حملة (نادرشاه)(١) على الموصل .

وقد اهاب والي الموصل حسين باشا الجليلي(٢) بالشباب والرجال بل وحتى الشيوخ للتطوع والدفاع عن المدينة. وقد غلقت المدينة ابوابها. فهي لاتفتح الا ساعة في الصباح لخروج المزارعين وساعة في المساء عند عودتهم، بعد التعرف عليهم واحداً اثر واحد. كان للموصل أنذاك ابواب عدّة. باب العمادي، باب السراي، باب الشط، باب سنجار، باب العراق، باب الجسر، باب لكش، باب البيض، وباب الطوب، إبوابٌ ثقيلة مصنوعة من الخشب الجوز ومبطنة بأحزمة من حديد محروسة ليلاً ونهارا. وكان الفلاحون يمثلون عيون المدينة ودوريات استطلاع او مجَسّات لها، يأتون اهلها بأخبار جيش نادر شاه الاثيم.

خرج موكب تشييع ابي المتواضع وقد اقتصر على عدة رجال

(١) ينتمي الى احدى القبائل التركمانية وهي كيركلو. التي تعتبر ضمن تجمع الأفشار. ولد عام ١١٠٠ هـ / ١٦٨٨ م ابناً لراعي غنم، واستطاع الوصول الى السلطة مستغلاً ضعف القاجار حكام ايران، غزا الهند والقوقاز والعراق، لقي مصرعه وهو يقمع ثورة اكراد أيران ضده عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م.

(٢) من ابرز الحكام الجليليين في الموصل، تولى حكمها ثماني مرات متقطعة من عام ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م وكان اخرها عام ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م، ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م حيث توفي في هذه السنة .

من الحيّ، كان علينا ان نلبث خارج المدينة حتى المساء ريثما يعود الفلاحون. فهذه اوامر الوالي التي لايمكن مخالفتها. فان نادر شاه الخبيث كان يرسل الجواسيس تباعاً يتسللون الى المدينة يثيرون الرعب في نفوس الناس، ينشرون الأخبار الكاذبة ويبالغون فيها. كان الشيخ فياض رجلاً كبيراً مسناً، وكان صديق طفولة أبي وكنا نسميه المَلَكْ الابيض لان لحيته بيضاء نقيه لايخالطها سواد. وقد اشتعل راسه شيباً. وكانت ملابسه بيضاء كذلك ويلبس (الكيوه) في قدميه (وهي حذاء نسيجي ابيض) فاراد ان يملأ وقت الفراغ هذا بذكرياته ومِلَحِه حتى يحين الوقت وقد سألته عن قرار والي الموصل هذا ومافيه من التعسف ومضايقة الناس. صحّح الشيخ افكاري، وبين لي ان والي الموصل رجل حصيف وعاقل، وله ما يبرر قراره، وهو واحد من اهل البلد ليس غريباً عنهم. كما انه مقاتل غيور وبطل معركة الغزلاني جنوب الموصل، الذي تصدى في ١٥ شوال ١١٤٥هـ اذار ١٧٣٢م للقوات الفارسية بقيادة نركز خان، على راس ثمانية الاف مقاتل. فقتل القائد الفارسي وابيدت معظم قواته.. وفر الباقون باتجاه بغداد التي كانت تحاصرها انذاك قوات نادر شاه. ان نركز خان هذا وجنوده فتكوا بسكان القرى الممتدةمع ساحل النهر وسَبَوا النساء وأسروا الرجال .. ونهبوا خيراتها. كانت موجة مغولية بغيضة.. فكأنّهم لم يدخلوا الاسلام ولم يلامس الايمان قلوبهم. بل هم كذلك، اوباش اجلاف لاتعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلاً. ورآني الشيخ فياض مصغياً الى كلامه، اني لم اسمع بهذا من قبل، كنت أشعر كأن هذه الاحداث حلمُ عفويّ مرّ في طفولتي

انك لم تحضر ياشاحوذ الاجتماع الذي دعا اليه الوالي فقد دعا علماء الموصل ووجهاءها وشيبها وشبابها. واخبرنا بقدوم نادر شاه وخيّرنا بين ان نسلم له الموصل وبين ان نقاوم ونصمد، ثم قال انا مع المقاومة والدفاع حتى الموت. فصاح الناس جميعاً نحن معك يا أبا مراد. تم الاجتماع على المقاومة، ثم شرح لنا خطته بترميم سور المدينة وحفر الخندق حولها وحشد القوة والمؤن. ووضع اهل الموصل جميعاً امام قدرهم وانتدبهم للقتال . رفع الشيخ الفياض نظره اليّ وقال: أحمد الله ياشاحوذ على هذا الوالي، فقد عانى اناس كثيراً من ولاتهم .

يروى ان والي مدينة قندهار(١) واسمه (طوبار قولي جان) كان علجاً خشن الطباع غريب الأطوار. بليداً لايهتم بمعاناة رعيّته، وقد توصل الى الولاية بطرق ملتوية. استطاع ان يقنع سلطان افغانستان ويفوز بولاية قندهار ،فرض على اهاليها ما شق عليهم من الضرائب، وابتنى سجناً رهيباً تحت الأرض يرمي به كل من يعترض عليه. ضاق الناس ذرعاً بسفاهته وجرائمه. ومخالفته لكل معروف ومألوف من عاداتهم وطباعهم. وراح اهل قندهار يتذمرون من سوء عمله ، لكنّ اصواتهم كانت خافته . . مرتجفة يتكلمون همساً بين الجدران خوفاً من الدَرَكْ، الذين اصطحبهم معه من قريته على حدود تركيا الشرقية المتاخمة لأرمينيا ،حتى ظن القندهاريون انه صنيعة او جاسوس لاينتمي الى الاسلام. لانه اتخذ مكاناً منعزلاً في المسجد عند حضوره صلاة الجمعة، لايشاهده الناس فيها، ولم يره احد منهم يُصلي .

(١) احدى المدن الرئيسية في افغانستان .

كما لا يستطيع احد الوصول اليه لانه كان محاطاً بالحرس المدجج بالسلاح حتى وهو داخل المسجد، كأنه في ساحة حرب وقد سماه اهل قندهار (طوبارالفيل).

ضاق الناس به ذرعاً وضاقت عليهم ارزاقهم، فاقترح عقلاؤهم على القاضي ان يتحرك. ان يفعل شيئاً وقد سامهم سوء العذاب بالفيل الذي استقدمه، من الهند ليلهو به، فراح يعبث بالمزارع ويرعب الاطفال، ويقلب المعروضات في المتاجر، ولا يستطيع ان يقربه احد، فهو فيل الوالي، والدرك من خلفه يحرسونه، ويضحكون على مصائب الناس، كمن باع دينه بدنيا غيره او (ماشه) (١) يتقي غيره به النار او قل حذاء يرميه صاحبه اذا ملَّ منه. تم الاتفاق ان يصلي الرجال جميعاً في الجامع الكبير. ثم يلقي القاضي خطبة قصيرة ويسير بالناس الى بيت الوالي فيرفع له ظلامة الاهالي والاضرار التي يسببها الفيل لهم.

باتت قندهار كلها تتحدث بخبر المسيرة وانبرى شعراؤها يهيئون القصائد لاثارة حماس الناس واقدامهم، واعجب عقلاء المدينة بهذه الخطوة الايجابية. وتم ذلك وخرج الناس فملئوا الشارع الموصل الى بيت الوالي. فرح القاضي بهذا الحشد. لكن الحشد بدأ يتناقص وتجمدت الكلمات في افواه الشعراء وكلّما اقتربوا أكثر، ازداد تسرب الناس من خلف القاضي من شدة خوفهم من بطش(طوبار الفيل).

لم يتسنَّ للقاضي الإنسحاب. فقد وصلَتْ انباء التظاهرة واتجاهها الى الوالي لم يبق خلف القاضي إلاّمجموعة صغيرة

(١) ماشة: ما يُمسك به الجمْرْ

لاتزيد عن العشرة تباطأت خطواته. نزع عمامته ليمسح عن راسه ووجهه العرق. نظر في وجوه من بقي معه بامتعاض، واضطراب حَثَّهُ ويأس، الشباب منهم على الإستمرار ومواجهة (طوبار الفيل) بالحقيقة ونصحه الشيوخ بالرجوع. وإيثار السلامة. لم يتكلم تقدم اكثر وبأصرار. انسحب الشيوخ من خلفه فتغافل عنهم وقسم من الشباب الذين كانوا يدفعونه الى المواجهة، فتبسم ساخراً منهم، لم يبق إلاّ إمام الجامع وخادمه وهذان لم ينسحبا حياءً منه. فأسلموا أمرهم لله وكما قيل ((مكرهٌ اخاكَ لابَطل)) بثقة غريبة لم يعرفا سرِها نظر القاضي إليهما واصلح هيأته عند باب الوالي استقبله الحجاب وساروا معه في دهليز طويل ليجد (طوبار) بانتظاره وقد شحب لونه وتقلصت عضلات وجهه، فبان شَلَلُ، نصف الوجه القديم الذي أصابه قبل سنين، وتهدلت شفته السفلى، فازداد منظره قبحاً، سَلَّم القاضي وصاحباه عليه وبعد أن استقر بهم المجلس، سألهم عن سبب هذه الزيارة وهذه المسيرة الطويلة !

تنفّسَ القاضي بعمق ولمعت عيناه ومَرر يَده على لحيتهِ وقال متصنعاً ابتسامة كلها رياء، لم يجد بديلاً عنها :

أدام الله لنا الوالي الجسور، فقد خرج الناس جميعاً محتفلين بالفيل ومستأنسين به، فقد أدهشهم وآنَسَ أيامهم الرتيبة الخاوية، ثم قرروا ايفادنا اليك لأنهم راؤا الفيل قبل ايام ضَجراً كئيباً .

فطلبوا مني ان التمس منك ان تأتي بأنثى تؤنس وحشته وتعيد البهجة والمرح اليه .

انطلقت اسارير الوالي البليد ،وضحك بخبث ضحكة عميقة

كفحيح الأفعى وابدا موافقته. وبعد عودة القاضي سأله الفارون من خلفه عن مقابلته للوالي فكان يقول لهم (نقلت له ما تريدون وسيفعل ما تستحقون) ضحكت رغم مصابي وقلت انه قاض ذكي وماكر. نظر الشيخ فياض بحزم. قال: لا تقل ماكراً باشاحوذ فان اليد الواحدة لا تصفق والناس لايعرفون قدر انفسهم وانهم اصحاب الحق في وطنهم .

و(ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .فالتغيير ارادة امة، وما لم ترتفع الأمة الى مستوى المسؤولية وتتحمل تبعاتها. يُبقي الله واقعها. بل قد يتغير الى الأسوء. حان وقت الدخول ورفعت المتاريس من خلف الباب. ودارت المفاتيح في مساربها . . وسمع الناس صرير الباب فانتظموا في سلسلة، ليتم التعرف عليهم قبل الدخول. لم يكن الوالي رجلاً مغفلاً بل رجل حرب فذ كما كان حاكماً عادلاً أحبه شعبه فكانت اخبار تقدم نادرشاه الذي لم ينسى هزيمة جيش(تركز خان)على يد اهل الموصل فجهز جيشاً جراراً قوامه ثلاثمائة وسبعون الفاً من مختلف الاقوام وتقدم فاحتل سهل شهرزور ثم استباح كركوك بوحشية لا مثيل لها بعد قصفها بالقنابل لمدة ثمانية ايام ،فقتل الكثير من مواطنيها فلم يتمكن ابناؤها من الصمود، فاستسلمت كركوك له وزحف الى اربيل فاستباحها وقبيل توجه الجيوش الى الموصل، عدت الى عملي وقد ازداد رزقي بعد أنباء زحف نادر شاه وأخذ اهالي الموصل يكدسون الارزاق والمؤن والوقود لانهم مقبلون على المعركة والصمود في وجه الغزو ،وفضلوا الدفاع والموت في مدينتهم على التشرد والسبي. وصارت المؤونة عادة لاهل الموصل

منذ ذلك اليوم. ساد المدينة نشاط تجاري مؤقت كالذي يصيب المدن ايام الحروب والأزمات فتنفذ السلع ويتجمع النقد ثم يخسرون جميعاً إلاأفئه شريرة تستغل الفرص وتثرى على حساب ارزاق الناس .

لكن أزمتي كانت في نفسي اكبر من ازمات الناس في معايشهم وهي فقدان أبي الذي كان بمثابة السند المعنوي والموجه الصارم الصامت الذي يحسب له من حوله الف حساب .

وقد تحمل مسؤولية اخوتي بهيبته ونظراته، وصمته الابدي كان كافياً لزجرنا عما يشين. انطلقت على سجيتي ومرحي. أُحاكي من يدخل سوق الفحامين في مشيته وحركاته فأثير ضحك الصغار والكبار لأن آمالي لم تكن كبيرة. البيت يكفيني والمهم ان اجد خبزاً أكله ،وانام على سرير ولو من طين، والا يجوع أخوتي أو حماري واتمنى ألاّ تهان كرامتي وبالرغم من خفتي وذكائي الملحوظ، وكفاءتي كنت مندفعاً لنيل رضى باعة الفحم حتى ينادى عليّ دون غيري، لنقل الفحم المباع الى بيوت المدينة.

اخبار تقدم نادرشاه تسري في المدينة، الاستعدادات قائمة على قدم وساق، وقد جاء أحد القادة العسكريين العثمانيين لتفتيش السور ودراسة مواقع الأبواب والأبراج والتحصينات وكان وصول القائد حديث سوق الفحامين وابتهاجهم. إلاّ إبراهيم الفحام الذي كان يقال عنه أنه خطيب جامع سابق، غضب عليه السلطان فعزله،قيل عنه كان عميق التفكير واسع المعرفة بعيد النظر. لم اسأله عن سابق عهده ربما كانت هذه المقوله عنه صحيحة. مررت بدكانه لأسقي حماري، سمعته يتكلم بصوت

خافت، يتندر بالقرار العثماني الذي ترك المدينة لمصيرها، فقال: ان مثل السلطان كمثل ذلك الرجل الذي خَرج من بيته يحمل عصاته فرجع بعد سويعات مهشماً، كان يَدّعي الرجولة والاقتدار فلما سألته زوجته عما أصابه ؟ ومن فعل به هذا ؟

قال أخذت معي عصاة الخمسة رجال فتصدى لي خمسون فقتلت كثيراً منهم. وفي المرات القادمة سآخذ عصاة الخمسين. ويبدو ان السلطان قد أرسل لنا عَصاة الثلاثمائة ألف، لقتال جيش نادرشاه. ضحك الحاضرون بمرارة وقطع استرسالهم بالضحك مرور عملاق ذو بشرة بيضاء تميل الى الحمرة، وله ملامح قاسية وعينان سوداوان كعيني صقر. وله شاربان معقوفان الى الاعلى يمشي مشية عسكرية بلا تكلف، فقد اصبحت جزءاً من حياته انه (بستون باشا) ومرافقوه. اثارت مشيته وشارباه فضولي ودهشتي واعجابي وتمنيت ان اكون مثله، فأنا قصير القامة ممتلي الجسم بلا ترهل، وزادني حرماني من التعليم قلة اهتمامي بمجريات الاحداث كما ينبغي.

انطلقت خلف القائد العثماني أُحاكي مشيته وقد حانت التفاتة من القائد، فرآني عن بعد اتشبه بحركاته وقد عقفت شاربيّ كذلك الى الاعلى، فأمر بحبسي، فالخطبُ جَسيم والمدينة في حالة حرب لا وقت للمزاح واللهو والضحك، كما لا ينبغي الإستخفاف برجال الدولة في هذا الوقت العَصيب، وأرسلت الى سجن البلدة، وفي الاحداث الكبيرة يتم تجاوز الكثير من الاعتبارات. وعندما استلمتني ادارة السجن سألت الادارة عن تهمتي فلم يعرف المأمور حقيقة التهمة، نظر الى وجهي وملابسي وقال

اظنها سرقة، فاودعت قسم اللصوص. لم يخطر ببالي يوماً ان ادخل السجن فبالرغم من نشأتي البدائية إلاآنني نشأت على الفطرة لم تحدثني نفسي بالسرقة يوماً او الاعتداء على الآخرين. وبدأت خلوتي الى نفسى ففي السجن مالا يتوفر خارجه ،فالرحلة داخل الذات طويلة المدى. عميقة الغور ...وأحلام تنسج ثم تمحى.. وآمال تلد ثم تموت بطعنات القضبان إن هذا السجن اشبه مايكون بالقبر. ظلام، وعفونة وصمت، يبدو الليل طويلاً مملاً خانقاً ليسلمنا الى نهار بلاحياة. أحاط بي أصحابي في السجن. يسألونني عن سرقتي اهي ذات قيمة تعدل ايام السجن المريرة هذه؟ وهل فيها ضمان لمستقبلي اذا خرجت بالسلامة ؟

وكم مرة سرقت قبلها؟.. وهل انا لص محترف أم هي أول غلطة في حياتي؟ نظرت في وجوههم وقد شحب لوني وابيضت شفتاي لم استطع الأجابة . بل حاولت مغالبة دموعي التي ملأت عينيَّ. وعلمتُ معاناة صاحب الحق الذي لايصدقه الناس. فقال لهم احد اللصوص المحترفين، ويدعى (منصور الذيب) دعوه انه لم يسرق وانا أُقسم عنه، همس لص صغير يقاربني عمراً في اذن منصور: ليس صاحبنا بريئاً كما يبدو، فله عينان. مليئتان بالمكر والخبث. انظر في عينيه.. نظراته ثاقبة حادة ومركزة، غير هيّاب ولا متردد.

- اسكت ياخبيث أتحسب ان كل الناس مثلك؟ انك تسرق الكحل من العين .

- تلميذك ياعم.. ضحك الجميع وشعرت بشيء من الألفة، وأعجبني مرحهم، فقلت معتذراً لهم: أنا لست بريئاً تماماً وربما

يدخل السجن ابرياء، لكني لم أسرق شيئاً. ولم أحدث نفسي بالسرقة ، وانا لست متشرداً ، كما يبدو من ملابسي الملطخة بالسواد ووجهي المعفرً بالرماد، لكني حمال في سوق الفحامين وهذه طبيعة مهنتي ، آتوْ بي هنا لأني مشيت خلف القائد العثماني الذي جاء يفتش الحصن وأبراج الحراسة .

ضحك(منصور) ثم قال :

احمد الله يا .... ما اسمك ؟

قلت : شاحوذ ياعم. ضحك الآخرون ، وقال اللص الصغير (عزوز)ان اسمك ياشاحوذ ملائم لمهنتنا فاللصوص والشحاذون ابناء عم. وكثيراً ما يتحول اللص الى شاحوذ. والشاحوذ ينقلب لصاً اذا انقطعت المروءة بين الناس .

اسكته منصور بقوله :

انك تبحث عن امثالك (لتساوي حيطانك)(١) ثم نظر اليّ بعطف وقال: احمد الله ياشاحوذ، ولا تذكر هذه الحادثة لأحد واذا سمعها (سعدون بك) مدير السجن. فسينقلك الى قسم اعداء الدولة والجواسيس، قسم اللصوص ارحم بكثير . كن قاتلاً او لصاً او اي تهمة سلوكية تعجبك ، فالأمر هين ، ولك أمل . الا ان تتعرض لمولانا السلطان . والآن ما معك من اخبار ؟ . . اين وصل نادر شاه ؟ يقال انه ظالم لا يرحم ، وانه لا دين له ولا ضمير . وأن قواته قد اقتحمت الهند وافغانستان شرقاً ، والقوقاز في الشمال الغربي لايران . ثم اتجه غرباً فأحتل شهرزور وكركوك

(١) مقولة شعبية للذي يريد ان يبرر افعاله الشائنة .

وأربيل وهو في طريقه الينا. ثارت جلبة وضوضاء وتداخلت الأصوات وسمع صرير باب السجن ودخل (سعدون بك) يحمل بيده هراوة غليظة)وقد لبس بنطلوناً فضفاضاً . . وحزاما من الجلد عريض. ويحمل طبنجة(مسدس) في جعبة مدلاة في حزامه وسط استغراب المسجونين جميعاً. فهو عبوس قمطرير. متسخط غليظ الطبع جافي الخلق . . لاتعرف البسمة الى وجهه من سبيل. ولا يخلو كلامه من السباب. واذا اضحكته فكاهة كانت ضحكة كصرير بكرة لم تشحم جيداً. الا انه اليوم يتصنع ابتسامة وان كانت لاتلائم وجهه الذي تعود الظلمة والانقباض وزاد على ذلك اذحيّاهم بالسلام بدل تحيته المعهودة (قبح الله هذه الوجوه) فاستبشروا خيراً فكثيراً ما يفرج عن المسجونين في مثل هذه الاحوال الحرجة التي يتساوى فيها اليأس والأمل او ربما غلب اليأس الأمل، داعب (سعدون بك) شاربيه بيمناه ورفعهما الى الاعلى باتجاه اذنيه. وأخذ يربت على ساقه اليسرى بعصاه المغلفة بالجلد من الاعلى وقد ثبتها بكفهِ بأشرطة على شكل حلقة. ثم قال انّ أفتدينا الوالي حسين باشا الجليلي أرسل في طلب عشرة منكم لا تزيد أعمارهم عن خمس وعشرين سنة. قطع حديث سعدون بك صوت قنابل جيش (نادر شاه). الذي واصل سيره حتى احاط بالموصل وقد حشد قواته في منطقة (يارمجة)(١) ونصب جسراً من هناك وعبرت قواته لتحيط بالموصل من كل الجهات. . . فكان يوم السادس من شعبان ١١٥٦هـ المصادف ٢٥ ايلول ١٧٤٣ أول ايام الحصار والحرب.

(١) قرية صغيرة تقع جنوبي الموصل على الضفة الشرقية لنهر دجلة .

اثارت القنابل الدهشة والذعر في النفوس وبدت شيئاً غير مألوف ولا عهد للمدنيين بذلك .

تطورات الاحداث تمشي سراعاً. تغيرت نبرة (سعدون بك)المهددة .. المتوعدة .. المتعجرفة دائماً ، فقال: لا وقت لنا اسرعوا معي حسب الطلب، وتم عزل عشرة من الشباب اللصوص حشرت معهم لصاً. بالرغم من براءتي، ولم تمتد يدي الى ما حرم الله يوماً. بعد خروجنا علمت ان هذه ليست المرة الاولى التي يخرج فيها مجموعة من السجناء، فقد اخرجهم الوالي قبل وصول جيش الغزاة عندما قرر ازاحة التلال التي حول الموصل، خارج السور حتى لا تكون غطاء لاختفاء قوة العدو وتحشده، ولتكن قواته مكشوفة تستهدفها مدفعية المدنية التي نصبها (الباشا) في منطقة باب الطوب. وبنادق المجاهدين على السور، فأناط عملية ازاحة التلال بنزلاء السجن، وجعل بينهم مسابقة ومحفزات لذلك، منها تخفيف سنة من السجن اذا انتهت المجموعة تسوية التل المنوط بها، عمل السجناء بجد في تنفيذ المهمة وهم يرتجزون المديح بحق مولانا الوالي بقولهم :

وعقد الرايات والبنودا حرض الرجال والجنودا(١)
وقبل هذا قلع الروابي وكان ذا في غاية الصواب
وكم تل كان في قرب البلد ساواه اذ فاز باحسن الرشد

ولمّا راى (الباشا) عمل السجناء المتقن أنعم عليهم بالعفو فغادروا الى اهاليهم .

---

(١) من قصيدة طويلة للشاعر فتح الله القادري الذي عاش احداث الحملة والحصار / نشرت في كتاب حصار الموصل لمؤلفه عبد الجبار محمد جرجيس

استمر قصف المدينة طيلة ثمانية ايام، قُدّرَ ما القي على الموصل بخمسين الف قذيفة، دكت كثيراً من البيوت وأطاحت بمعظم منائر المدينة. وبالرغم من الاحداث الجسام، والمصاب الجلل والقضية الكبرى الآن فكري كان مشغولاً بأخوتي الصغار وحماري ترى أهم جياع؟ أم شِباع؟ أين حلت بهم أيأمهم العسيرة؟ أن بيتنا واهنٌ وهو في أبعد حي قرب ألسور في باب البيض.

وسقفه ليس من الحجر كبقية الدور، بل سقف مؤقت من جذوع الشجر واغصان الغَرَبْ(١). منخفضاً، شبيه بكتلة من الطين مجبولة بشكل غير متقن من يراه مرة لايريد ان يرى البؤس ثانية. سهل على القذيفة اختراقه، ثلاثة اخوة صغار ورابعهم حماري التمري اللون المخلص العنيد الذي يحمل أثقالي ويحملني عند عودتي واكسب رزق اخوتي عليه. احدثه بما في نفسي بالذهاب والاياب فلايفضح سري قالوا لنا ان عدد مدافع الوغد نادر شاه طهماسب مئة وستون مدفعاً ومئتان وثلاثون هاوناً.

في طريقنا الى مقر الوالي انتابنا شعور جديد كأننا بعثنا من القبور، فسرت الفرحة في نفوسنا بالرغم من مصاب المدينة.

رأينا انفسنا أهلاً لمشاركة الناس في مصيبتهم، وزاد أملنا باطلاق سراحنا. عجبت عجباً شديداً، فكل شيء في الموصل يتحرك، الرجال. . النساء. . والشيوخ. . والاطفال. كل يحصن داره. وينقل الماء اليه تحسباً للدفاع من بيت الى بيت. وقد أقسم

(١) الغرب: نوع من النباتات على ضفاف الانهار.

الرجال كلهم على الموت. والا يسلموا اعراضهم الى المعتدين اخفيت الفتيات الصغيرات في سراديب متداخلة لايهتدي اليها غريب، وضعن بأمرة المرأة العاقلة، ذات الحياء. . والخدر. . والدين زوجة حسين باشا الجليلي ورعايتها. وقد تم نقل كل المحاصيل المحصودة الى داخل الموصل. لئلا يستفيد منها العدو، او يعمدوا الى اتلافها. واثار دهشتي خندق عظيم حفره الاهالي حول الموصل. وأجروا فيه الماء كمانع لعبور القوات الأثيمة، ويعيقهم من تسلق السور. ادخلونا الى حمام العطارين، واغتسلنا تحت قصف مدفعية طهماسب اللعين لم ينج الحمّام من القصف، فقد سقطت عدة قذائف هدمت باب الحمام ومدخله.
كان العمل مستمراً في البناء والترميم ورفع الأنقاض بهمة لا تغتر ابداً. هذه توصيات الوالي فكل بيت يهدم يُعاد بناؤه بالحال، ومسؤولية بنائه على اهل الحي في تعاون تام، اقتربنا من الساحة التي تحيط بالسراي، مقر مولانا الباشا، فهالني مارأيت. رجالاً بزي عسكري موحد، كلهم يلبسون مايشابه ملابس (بستون باشا) يحمل بعضهم بنادق وعتاد، وآخرون يحملون السيوف يلبسون خوذات من الحديد وقد ربطوا زمزميات الماء بأحزمتهم مع جعبة للأرزاق. وجوههم صارمة الملامح قد تغشاها الجد، متأهبة للانطلاق. شباب أشداء مفتولي العضل، قدشمروا عن سواعدهم. تُدخل رؤياهم الهيبة في النفوس وقد انتظموا على شكل مجاميع. كل مجموعة معها قائدها ومراتبها. وعلمت ان الأمر جلل فالساحة قد ملئت رجالاً يقدر عددهم مابين التسعة الاف والعشرة لكن الصمت يسود الساحة وكأنها خالية، الا من قعقعة السلاح اثناء

الحركة.

لم نستطع مقابلة الوالي. اعادنا (سعدون بك) الى السجن وقد علا الحزن وجوهنا وضاقت علينا الدنيا بما رحبت، وشعرنا كأننا ندفن أحياء في هذا القبو المظلم. لم يخبرنا (سعدون بك) بتأجيل المقابلة وحسبنا أنها ألغيت. هكذا امضينا اسبوعاً طويلا كنا نسأل أثناءه عن اخبار المدينة. وقد تغيّر حالنا نحو الأحسن. وبدأ (سعدون بك) يوصل لنا الأخبار بنفسه، وكأنه صديق لنا. وفي فجر يوم الجمعة الخريفي الجميل جاءنا سعدون بك على غير عادته وبملابس غير رسمية ليزف لنا بشارتين الاولى:

ان القوة العسكرية التي رأيناها في الساحة قد اغارت فجر الخميس على قوات نادر شاه باتجاه مقر قيادته خارج الموصل، بقوة صاعقة سريعة الحركة واشتبكت مع العدو في منطقة (يارمجة) واوقعت فيه خسائر فادحة وقتلت احد قادة (نادرشاه) المسمى (جيلوخان). وانسحبت بكفاءة بعد ان اثارت الرعب في جيش العدو واعطت درساً لطهماسب عن بسالة رجال الموصل. والبشرى الثانية:

هي استعدادنا للخروج يوم السبت لمقابلة الوالي، وكنا نحلم طيلة ايام الاسبوع بمقابلته ونتعرف على شكله وهيئته وديوانه واعوانه، وتمت المقابلة حسب الموعد، وقُدِّمنا الى مجلس (حسين باشا)، رجل وسيم ومهاب، قد بدا عليه الارهاق من جراء السهر المتواصل، ترتاح النفس اليه، تشعر انه صديقك اذا نظرت اليه، كادت دموعي تنهمر وانا لاأعرف مصير اخوتي اذ لاسقف لهم ولا مؤونة، اردت ان اسأله عنهم، غلبتني هيبة الرجل ووقاره.

وقرأت الهم الكبير الذي يحمله في عينيه الزرقاوين العميقتين الغائرتين. طلب الينا الجلوس بين يديه، وكان القاضي (علي افندي الغلامي)(١) يجلس الى جانبه، يلبس عمامة بيضاء مغبرة عليها اثار التراب، لها ذؤابة متدلية على ظهره . وقد لبس الجميع خناجرهم في احزمتهم والى جانب كل واحد منهم سيفهُ .

وكأنهم سيلاقون العدو الآن ، او انه داخل عليهم لامحالة وقد تهيئوا للمعركة فوراً . بقي (سعدون بك) واقفاً ينتظر ما يصدر من قرارات بحقنا، وبقدر ما كنت قلقاً على اخوتي وحماري الا ان شعوراً عالياً بالثقة بدا يتسلل الى نفسي ، وعندما تكون المصيبة عامة يزداد الفرد تصبراً وتحملاً ، ويكون جزءاً من كل ويعفي نفسه من التقصير، اشارَ الوالي الى سعدون بالانصراف . ادى التحية ثم خرج بعد ان وضع الملفات امام القاضي وكنا عشرة ، والملفات كانت تسعة، فأنا لا ملف لي. قرأ القاضي الملفات واحداً اثر واحد، وقرأ انواع السرقات وحجم المسروقات . وكان قد أرسل في طلب المجني عليهم. وتمت مقابلة كل متضرر مع اللص التائب الذي سرق منه. وقام (حسين باشا) بتعويض كل متضرر من ماله الخاص وعفا عنهم، بعد اعلانهم التوبة النصوح. وبقيتُ انا وحدي تبسمَ الوالي بوجهي وقال :

علمنا ياشاحوذ انك سجنت مع اللصوص ولست منهم . فما هي جريمتك ؟

---

(١) هو القاضي الشيخ علي بن مصطفى الغلامي تصدَّرَ للافتاء على المذهب الشافعي وهو شاب وكان من اخص جلساء الحاج حسين باشا تولى الافتاء والقضاء عام ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وتوفي عام ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م .

كيف اخاطبه ؟ . . بأي لقب وبأية صيغة وأي الكلمات تقارب بين الباشا وحمال الفحم ؟

سمعتُ القاضي يقول له (اعز الله مولانا الوالي) وسمعت سعدون بك يقول له (امركم افندي) . .

فحفظت هاتين العبارتين، ورددتها في نفسي عدة مرات. قلت واثقاً في نفسي وكأني اخاطب تاجراً في الفحامين، فصاحب الحق لايخاف ولا ينبغي له :

اعز الله مولانا الوالي، انا لم اسرق شيئاً لكني حاكيت مشية القائد العثماني(بيستون باشا) ذي الشاربين الكثّين وفجأة التفت . . فرءآني وأمر بسجني، وتبنيتُ افكار ابراهيم الفحام. لأبرر فعلتي فقلتُ: ما عسى رجل واحد أن يفعل لمدينة ؟

وخشيت أن اذكر السلطان أو اُلمح عليه .

امعن النظر الّي وكأنه يتفحصني: طولي . . قوامي . . ملامح وجهي، وقد اعجبته ذلاقة لساني، وطلاقة اجابتي. التفت الّي قاضي الموصل ومفتي الشافعية (علي افندي الغلامي)وكان متربعاً على اريكة ترتفع قليلاً عن ارضية الغرفة. . وضّاء الوجه . عالي الجبين. . ذو لحية كثة قد خالطها الشيب، وقد أضفت على وجهه الطويل الدقيق الملامح، استدارة وسعه محببة.

قال القاضي بجد اشبه بالمزاح. عقابه ان يمشي الأن كما مشى في السوق خلف(بيستون باشا) ويرينا حركاته كلها . فقمتُ على الفور دون ان يأذن لي الوالي. نعم ياأفندم، وهممت أن اقوم فقال القاضي بلهجة اشد حزماً اسكت ياشاحوذ. لم يأذن مولانا الوالي بعد .

اعجب (حسين باشا) بقرار القاضي وأنبسطت أساريره بعض الشيء. ومازال قصف المدينة متواصلاً. والحياة متوثبة منطلقة للدفاع عن نفسها. ومجلس الوالي منعقد دون خوف وكأن الفارق بين الشجاعة والجبن خيط رفيع. ثم قال: موافق على قرار القاضي . فقمت امشي امامهم مشية (بيستون باشا) واخذت عصا من يد حارس الباب، ورفعت شاربي الصغيرين الى الاعلى بعد فركهما ومشيت متبختراً متفخاً بكل جدية وبهاء وكأني (بيستون) ايام شبابه. قام الوالي واقترب مني وربت على كتفي ثم قال: الآن لي طلب عندكم: قلنا جميعاً السمع والطاعة لمولانا المجاهد حسين باشا. لا اكتمكم اني احبيته كأمي وأبي، بل شعرت وهو يربت على كتفي ان يده، يد أبي (رحمه الله) عندما رجعت اليه محزوناً في احد الايام وشكوت اليه احد اغنياء الموصل الذي حملت الفحم على حماري الى بيته البعيد عن السوق. ولم يكتف، بل اضطرني ان احمل الفحم على ظهري وادخله الى مخزن الوقود في بيته في سطح الطابق الثاني من البيت ولم يعطني الا نصف الأجره .

وعندما اعترضت عليه طردني بكلمات نابيه جرحت كرامتي وخشيت ان ارد عليه . لأنه قيل لي انه اقارب السلطان. وكانت اول مرة في حياتي لاثأر لكرامتي فبقيت محزوناً حتى رجعت الى ابي. قام ابي من مكانه وكان متكئاً على دكة من تراب في باب الدار بانتظاري وربت على كتفي وقال (يابني امشي صافي ومَشّاي الكَدْر هافي)(١) فقال الوالي بحنان ورأفة :

---

(١) مثل شعبي معناه الاستقامة في الحياة هي الاولى والافضل .

عودوا الآن الى عوائلكم فقد اشتد شوقهم اليكم. وثبتوا الخائفين منهم. وعودوا الّي بعد صلاة المغرب. في مقر القيادة الجديد في قلعه(باشطابيا) ،عمد الوالي الى نقل مقر قيادته مقابل معسكر(نادرشاه) الذي نصب مقر قيادته في منطقة (القاضية) على الساحل الايسر من النهر. ليسهل عليه استطلاع حركة قوات العدو وعدته وامداداته. ثم امر الياور (١) الخاص ان يصرف لكل واحد منا خمسة (أقشات)، وقال :

لاتدخلوا على اهليكم بايد فارغة :

اردنا ان نقبل يديه فتمنع. وخرجنا لاندري كيف نشكره ، ولم يعد لنا رغبة الا في لقائه والعودة اليه .

رايت شبابا ورجالاً واقفين بين يدي الوالي كأنهم ينتظرون اوامر جديدة فلما سألت عنهم قيل لي انهم ابناء عمه قد فرقهم على حراسة ابراج المراقبة وكذلك اولاده .

خرجت مسرعاً ابحث عن اخوتي الصغار وحماري، ثارت الأحزان في نفسي واشتد قلقي على اخوتي وأنا اسأل عنهم، فيقال لي بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا .

إسال عنهم في مكان كذا وكذا فأزداد لوعة وألماً . . فأسألهم بتوسل، فلا أحصل إلا على القليل. الكل مشغول، وجوه خائفة مذعورة، تبحث عن شقوق الأرض، وسراديبها، لتحتمي بها . . ووجوه كلها عزم وحزم وارادة. تتوعد العدو وتتحداه، والقصف متواصل، كنت أقفز من مكان الى مكان. وكأن الموت يلاحقني،

(١) الياور : كلمة تركية معناه السكرتير .

يتخطفني من كل جانب. وفي نفسي اقول: الموت حق، يارب. أمهلني حتى اطمئن على اخوتي وحماري، ماذا يريد مناطهما سب اللعين ؟ اليس مسلماً ؟ لم ينفع اللوم والعتب على عدو غشوم جهول اعمى بصيرته طمع التوسع وشهوة السلطان ، في غمرة أحزاني وانشغالي، سمعت المؤذنين من اعالي ما تبقى من منائر وقباب المساجد، يهيبون بالأهالي للاسراع الى جنوب الموصل. حيث استطاعت مدفعية العدو إحداث ثغرة في السور بعد ثمانية ايام متوالية من القصف المركز الكثيف على السور .

تدافع الناس كالسيل الى منطقة (الثلمي)(١) ينقلون التراب والحجارة بالاكياس وعربات النقل ، ويقاتل الرجال بعناد اذهلني وأثار نخوتي ، وقد شكّلوا سَداً بأجسامهم على طول الثغرة حتى تم ردمها وَصدّ المقاتلون العدو وأحبطو أحلامه .

ورايت مشاهد انسانية رائعة استماتت في الدفاع عن المدينة . ومما ايقظ في نفسي الهمة وروح المشاركة. رجل أعمى، قد ربط يده بيد أخيه ويحمل الحجارة في ثوبه تحت مظلة من نار العدو وقذائفه المتواصلة كسياط من لهب .

ورايت امرأة عجوزاً تحمل التراب في ازارها وبعد ان تقدمه للبنائين تقف لتزغرد وتهيب بالمقاتلين وتحثهم على القتال وتذكر بطولة الشهداء من اعيان الموصل ومنهم السيد عثمان الجليلي ابن عم الوالي.

---

(١) جنوب غرب باب لكش وجنوب شرق باب العراق. أصلها الثلمة بالتاء المربوطة غير ان اللهجه الموصلية تقلبها الفا ممالة فتلفظ ياءاً.

ورايت طفلاً لايتجاوز عمره الرابعة قد التصق ببطن امه التي ألجأها القصف الى الاختباء في اقرب قنطرة، قد رفع يديه الى السماء مع أُمّهِ يدعوان الله تعالى ويرجوانه فنظرتُ اليه بحنان وسألت الله من اعماقي ان يستجيب لدعاء الطفل البريء هذا، وألّايرد هذين الكفين الصغيرتين اللذين لم يقترفا إثماً خائبتين.

استمرت المعركة سبع ساعات فات موعد اللقاء بالوالي في خضم اهوال المعركة. التحقتُ فوراً مع جحافل المتطوعين الى منطقة (الثلمي) فوجدت عاصماً وخالداً الصغيرين ينقلان الحجارة بأيديهما الصغيرتين وقد تعفر وجهاهما بالتراب وشحب لونهما. احتضنتهما. قبلتهما. فبللت دموعي وجهيهما وسألتهما عن اخيهما (سالم) فقالا انه مع فرقة البنائين، ركضت من فوري الى الامام. الموقف على الثلمة صعب لايطاق. القصف يستمر ساعة ليخرب ما تمّ بناؤه ثم يتوقف، فتندفع موجة كثيفة من المهاجمين من خلال (الثلمي) لكن رجالنا كانوا يقاتلون قتالاً ضارياً، فيقتلون ويطعنون المهاجمين ويشردون الباقين خوفاً وهلعاً. وفريق أخر يرميهم بالحجارة من فوق السور من على جانبي (الثلمي) انتهت (معركة الثلمي) وسط تكبير مُدّو يشق عنان السماء . وعدت الى اخويّ أسألهم عن حماري . قالوا لم نره منذ تشردنا فقد سقطت قذيفة على دارنا ونجونا بمشيئة الله. قضينا ليلة على باب الجامع الكبير، ثم أمر الوالي بجمع المشردين في سراديب معينة . فالتجأنا الى سرداب كبير في بيت (يحيى افندي الفخري) مفتي الموصل ولم نر الحمار من يومها، سألتهم: وماذا . . . تأكلون وكيف ؟

قال عاصم: من يسأل عن الطعام ياشاحوذ ونحن نرى امامنا

في كل ساعة الموت الزؤام، مع الفجر يبدأ هدير المدافع والهاونات المعتدية. ثم تأتي الأخبار بعدها . قتل فلان، وسقط دار فلان. . وتمر قوافل الشهداء تروي ظلم المعتدين.

لم يتوان المفتي عن تقديم الطعام يومياً ويشرف بنفسه على اطعامنا. ان المصاب عظيم ياشاحوذ. حمدت الله كثيراً على رؤية اخويّ وأشد ما آلمني واعتصر قلبي وانا احتضن اخوتي قذيفة آثمة اصابت امرأة شابة تحمل طفلها الرضيع وتحاول الهرب به فجاءتها القذيفة في رأسها. لم تنفجر القذيفة، لكنها قتلت المرأة، فسقطت على الارض، وسقط الرضيع من يديها فحملناه الى بيت المفتي. دخلت معهم الملجأ فرأيت عوائل، بنسائها واطفالها قد زال الاحتشام بينهم وجمعتهم المصيبة وكأنهم عائلة واحدة. وتعرفت على طباع الناس المختلفة، طيبين ومرحين منعزلين وفضوليين، وذوي الأحلام وسريعي الغضب.
لملَمَتْ المدينة جراحها في الايام التي اعقبت (معركة الثلمي) وعاد سالم يتوكأ على عكازين تحت ابطيه. وقد قطعت احدى رجليه بقذيفة هاون اثناء البناء . . دفن ساقه في السور مع الشهداء جميعاً بملابسهم حسب اقتراح مفتي الموصل(يحيى افندي الفخري) ليبعث الى الاجيال رسالة لن تنسى. إمتزجت مشاعري فأفرح ساعة للقائه واحزن اخرى على فقدان ساقه. بت ليلتي افكر بسالم الفتى المعوق، وكيف سيعيش ومن ينفق عليه. نسيت موعدي مع الوالي. ربما لم يكن له الوقت ايضاً لاستقبالنا. فقد كان يتنقل بحركة دؤوبة في جنبات المدينة يشد ازر المقاتلين ويبث روح الجهاد والثبات فيهم. لم ييأس(نادرشاه)بعد

فشل(معركة الثلمي)فدفع بمزيد من قواته عبر جسر من القوارب اقامه بين (القاضية)(١)و(حاوي الكنيسة) واستكمل عبور قواته يوم ١٥ شعبان ١١٥٦هـ وجهزهم بألف سُلَّم.

وخطط لمعركة جديدة في محاولة لنسف السور. فقد تم إلغام السور بالديناميت في ثلاث مناطق بين باب سنجار وقضيب البان فشل تفجير اثنين منها وانفجر الثالث باتجاه قوات نادرشاه. فأحدث حرائق فنكت بهم وشردتهم. واستمر القصف المدفعي على السور ونصبت السلالم لتسلق السور ودارت رحى معركة رهيبة طاحت فيها رؤوس الغزاة من اعالي السلالم. فقد كان رجال الموصل يتواثبون على الأسوار يقطعون ايدي الغزاة ورؤوسهم حتى بلغ عدد قتلى المعتدين خمسة الاف واربعمائه قتيل. واستشهد من ابناء المدينة مئتين من الرجال كنت احد مجاهدي معركة السلالم من حيث لا ادري وما كنت أعرف لنفسي حقاً، ولم اتدرب على القتال لكن المحن تعلم الرجال والحق منصور (ومكر اولئك هو يبور).

مازال منظر سالم برجله المقطوعة بين عيني. يقطّع نياط قلبي وايتام(معركة الثلمي).. القصف المتواصل.. الاطفال الذين فقدوا الأم والاب ينامون في الملجأ حولي، قد أثارني وحشدّ كل غضب الرجال في رأسي.

فأقسمت بربي في سري، ان اشفي غليلي من هولاء المعتدين وان أثأر لأولئك الأبرياء.

(١) قرية تطل على تل شرقي النهر وهي متاخمة للموصل والآن ضمن حدود البلدية .

يعلم الله كم قتلت منهم، لكني كنت اسمع اصوات المجاهدين، تشيد بي وتنطلق الحناجر بأسمي، وكأني أسمعهم من بعيد، وسارت الأخبار على كل لسان في المدينة بأن بطل معركة السلالم هو (شاحوذ الفحام) وكان لي صوت جهوري ضخم، فمن لم أنله بسيفي اصرخ به فيختل توازنه، ويسقط من السلم فيضحك منه المجاهدون .

ويتساءل الناس من شاحوذ الفحام؟ وتنسج القصص حولي، وينسب الي ماعملته ومالم أعمله. ويُكبِر المخلصون من أمري ويذكر الخبثاء بأني لص أطلق الباشا سراحه عشية(معركة الثلمي) كانت هذه التهمة تؤلمني لأني بريء منها والله أعلم بي .

اما أني فحام وحمال وفقير فنعم .

يئس(نادرشاه) من اهل الموصل بعد فشل معركة (السلالم) ونفاذ العتاد عنده. فعمد الى تحويل مجرى نهر دجلة عن المدينة فوصف ذلك شاعرنا الذي حضر المعركة (خليل البصير المتوفي سنة ١١٦٣هـ) .

فبان بيننا سمات القحط ... حتى حُرمنا شرب ماء الشط

فأمر الباشا دون تردد ان يحفر الناس الابار الخاصة وأمر بحفر ابار عامة لسقاية المدينة .

وصلت أنباء استبسال شاحوذ الفحام الى الباشا فأرسل في طلبي والتقيت هناك ببقية العشرة. اللصوص الذين اطلق سراحهم وكنت معهم .

فالى هذا اليوم لم تعرف المهمة التي يريد الوالي ان يكلفنا بها ولماذا اللصوص دون غيرهم من السجناء ؟

دخلنا ديوان الوالي فاستقبلنا، وقد لبس حلة بيضاء جميلة قشيبه وقد وضع على كتفيه عصابته الحمراء التي كان يشد راسه بها اثناء المعارك عند تنقله بين المقاتلين. وقد فتحت نافذه صغيرة مطلة على النهر. تسلل منها نسيم النهر البارد، وضوء الشمس الدافيء في هذا الصباح الخريفي الرائع. امر الجميع بالخروج عدا ثلاثه، القاضي الغلامي والمفتي الفخري وحسين باشا القازوقجي والي حلب الذي رفد مقاتلي الموصل بنفسه وألفين من شباب حلب، اشتركوا في الدفاع عن الموصل ورايت الفرح في عيونهم لأول مرة والثقة بنصرالله تعالى لهم. عيوننا متعلقه بالوالي الذي زادته نشوة الانتصار تألقاً.

خلا الديوان من الزوار عدا الذين ذكرتهم.

قدمت لنا القهوة المعبقة بالعطر. شربتها دفعة واحدة لم أتعرف على أداب مجالس من هذا النوع. قضيت سنيَّ حياتي مع حماري والفحم والتهريج والضحك ولمز الناس وغمزهم في الطريق. ماكنت أعلم ان فيَّ كل هذه الشجاعة والاقتدار. شعرت ان الكل ينظرون اليّ الا الباشا فانه قد تشاغل عني، حمد الباشا الله تعالى ثم وجه كلامه الينا قائلاً:

انكم عشتم ايام الحصار القاسي والمعارك الضارية وقد طال الحصار كما ترون فقد مضى اكثر من ثلاثين يوماً ونحن نستنزف ماادخرناه من مؤن دون امداد. وقد عشتم نصرالله سبحانه للحق على الباطل. لكني اريد اليوم ان اثير الرعب في نفس (نادرشاه) ليرحل عنا وتعود ايامنا الرحية الهنيئة بأذن الله.

كان يخاطبنا جميعاً لكني بدأت اشعر أنه صوَّب نظره الّي وهو يقول :

المطلوب اليوم شاب، شجاع، خفيف الحركة، يحمل رسالة مني الى طهماسب اللعين، فيدخل خيمته سراً، ويضع الرسالة تحت وسادته، ويغرس خنجراً في وسادته، فمن يرى في نفسه القدرة على ذلك منكم ؟

عندما يئس (نادرشاه) من الموصل، دفع قواته شمالاً ففتك بقرى الطريق ووصل جزيره ابن عمر، فقتل رجالها واستباح نساءها ونهب خيراتها وعاد ليعسكر قبالتنا. انه الآن في مقر قيادته في (القاضيه). نظرت الى اصدقائي اللصوص التائبين، فرأيتهم واجمين. وايقنت بأنهم ليسوخائفين على انفسهم، بقدر خوفهم من التقصير في اداء المهمة .

ورايت عيني الوالي في عيني ، كأنه يريدني ان اتكلم .

سرت في نفسي مشاعر جديدة لم أعهدها من قبل انه الشعور بالانتماء والاحساس بالشهامة والمسؤولية وشعرت ان كل خلية في جسمي قد امتلأت همة وعزماً وحبوراً ورضى عن الذات ، واني قد اكتسبت اهميةً واحتراماً لذاتي لم اشعر بهما من قبل .

فقد وفقني الله واعانني فوق السور في (معركة السلالم) والان انا بين يدي الوالي مباشره ينتدبني في عملية تقاعس غيري من الشباب عن ادائها. لم يعد جلدي يسعني . . نهضت من مكاني بملابسي الممزقة التي مازالت ملطخة بالدماء ومعفرة بالتراب ويغبار الفحم فلم اعد املك غيرها. تهدم بيتنا الصغير واحترق متاعنا العتيق المتهرئ. وضاع حماري لكني وجدت نفسي اليوم

رجلاً بين المقاتلين ورمزاً لجهاد مدينة لن ينسى .

اشرق وجه الوالي ودعاني ان اقترب منه .

شكر اصدقائي اللصوص وصرفهم الى مواقعهم في ابراج المراقبة ، وكلفهم بعمليات تسلل ليليه لاقلاق العدو وارباكه . وأسرني بتفاصيل العملية وتوقيتاتها. فنفذتها في الليلة الثالثه والثلاثين من حصار المدينة بعد ان صبغت وجهي وجسمي بالسواد وتلثمت بخرقة سوداء. . وتحزمت على الخنجر . . ووضعت الرساله في عدة اغلفة جلدية مشمعة لاينفذ اليها الماء. وعبرت النهر عرياناً بعد منتصف الليل مع غياب القمر تماماً وقد عم الظلام الدامس ساحل النهر ومن عليه، حتى لايكاد المرء يرى يديه. كل همي ان انفذ رغبة القائد الصامد الجرىء. وسرت مع الشاطيء عبر الاحراش. حتى وصلت خيمة(طهماسب) في الجهة البعيدة عن حرسه. . وقبيل الفجر رايت (نادرشاه)يخرج من خيمته لقضاء حاجته تسللت زحفاً الى الخيمة . . وضعت الرسالة . . غرست خنجري في وسادته . وتسللت على عجل من اقصر الطرق الى النهر وعدت ازف البشرى الى الوالي. بعد صلاة الصبح في جامع (يحيى ابي القاسم) فلما رآني وعلم بنجاح مهمتي قبلني من رأسي وهنأني قائلاً: الان ساذهب لأنام. علمت عندئذ ان الرجل لم ينم تلك الليلة. وبقي يدعو الله لي وينتظرني فنزلت دموعي فرحاً وغبطة وشعرت اني اخذت بعض حقنا من طهماسب. وأنا لازلت بين يدي الباشا ومازال وجهي مصبوغاً بالسواد. ضحك الوالي. : قال لاثنين من رجاله: خذوه الى حمام العطارين. . ومرّوا على بيتنا وخذوا ما يصلح له من

ملابس اولادي. واخرج من جيبه خمس قطع ذهبية من فئة الخمس ليرات ووضعها في يدي وقال لي: إلتحق غداً برجالي في حراسة قلعة (باشطابيا) حتى تكون قريب مني. فأنت موصلي اصيل والاصالة رجولة واباء وشعور بالانتماء وليست بالوجاهة الفارغة والإدعاء.

اسقط في يد طهماسب، وهو يرى الخنجر مغروساً في وسادته وبعد ان فض الرسالة وقرأها. لم يبق له خيار وقد جاء فيها (بسم العزيز الجبار المتكبر)

من حسين باشا الجليلي قائد مجاهدي الموصل المحروسة بعين الله الى نادر شاه طهماسب:

(لم نرد قتلك، وكنا على ذلك قادرين، ارحل عن ارضنا)

في الصباح خضّب (نادرشاه) يديه الآثمتين بدماء حرسه بعد ان اراهم الخنجر والرسالة. ثم ارسل في طلب (ملا باشي علي اكبر) كبير علمائه. وطلب منه ان يصالح اهل الموصل على ان ينسحب بجيشه وليحفظوا له ماء وجهه بعدد من الخيول العربية الاصيلة وراسل (علي اكبر) (يحيى افندي الفخري).. وأنسحب يجر أذيال الخيبة مثقلاً بالضحايا من جيشه وبالآثام. في الرابع من رمضان عام ١١٥٦هـ بعد حصار استمر اربعين يوماً وبعد احتفالات النصر وصلاة الشكر، التي اقيمت في جوامع الموصل جاءني (الياور) يستدعيني لمقابلة الوالي وحين دخلت عليه استقبلني واجلسني عن يمينه وقال لجلسائه:

هذا الفتى أحد أبطال الحدباء الاشاوس وشبابها المخلصين والاخلاص فطري لاعلاقة له بالعلم والمال، وقد قام بواجبه بلا

تردد خير قيام وقد آن له ان يأخذ حقه ، فمن الظلم ان نطالب الناس بالواجب والتضحية ولا نمنحهم جزءاً من حقهم . طلب من المفتي(يحيى افندي الفخري) ان يلحقني باحدى المدارس التي يشرف هو عليها . تعلمت القراءة والكتابة واصول التلاوة ، وعلوم الشريعة والحياة ، ودخلت الحياة من بابها الأوسع ، وعلمت ما لم اكن اعلم وازيحت غشاوة الجهل عن عيني ، لأقرأ بطلاقة سجل الشرف الاعظم .

﴿الر . كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (١)

الذي كنت اسمع القراء يرتلونه ولاأفهم من معانيه شيئاً لكني مازلت اشعر بحنين غريب يربطني به ، وحب غامر يتغشاني عند سماعه. وكنت أمزح بكل الاعتبارات والصور الانسانية في السوق الامايتعلق بالقرأن الكريم. بل كان الذي ينال من الاسلام شيئاً لايسلم من رد فعلي العنيف. او أُضحك الناس عليه على الاقل . مازلت اسكن الملجأ أنا وأخوتي. عدت الى بيتي لاول مرة، وعلمت من الجيران ان حماري لم يسلم من دان(٢) نادرشاه فاصابته قذيفة الظلم والغرور فقضت عليه احاط بي جيراني وقد وصلتهم أنباء شجاعتي وتغير شخصيتي وعملي وحتى ملابسي بل لم يكد بعضهم يعرفني بالنظرة الاولى. وقسم منهم يمرر يده على صدري ويتلمس ثوبي العسكري وازراره المعدنية اللماعة. ودهش البعض لنظافتي ونظارة وجهي. حتى سمعت جارتي عائشة تقول: سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر اهذا هو شاحوذ الفحام؟

---

(١) سورة هود / ١

(٢) دان كلمة تركية معناها القذيفة ومفردها دانة

غير معقول! شهران من الزمن عملت فيك كل هذا! فأجبتها على الفور بقولي: ياخالة ما بينا كصرة(١) كل شبابنا أبطال لو اتيحت لهم فرصة، اسألي نادر شاه عما فعلناه ليلة الأسرا (٢). قلت هذا الكلام على سجيتي فابتدرتني بزغاريدها الرنانة المعروفة، وزغردت نسوة الحي اللواتي التففن حولي، والتقطها الحاضرون من فمي وجعلوها اهزوجة للاعراس والتفاخر والمناسبات.

واضاف عليها سكان باب البيض، بيتاً اخر كان اعتزازاً منهم بي فقالوا:

باب البيض ارجـال	الحق مـا(٣) يجـري
نحن احفاد الصحابة	مـا بينـا كصـرة
كـل شـبابنا ابـطال	لو اتيحت لهم فرصة
سـلي نـادرشـاه	ما فعلناه ليلة الإسرا
والثلمي رتقناه بكفاءة	واحدنـا بعشـرة

وأدركت ان من يسعى الى ان يرضى عنه الله تعالى، يرى الناس كلماته حكمة ونظراته رحمة وعمله بطولة وعبرة. وصار بوسعي ان أمد بصري الى الوراء واستقرئ الاحداث.. وانقل لكم صفحات من تاريخ البطولة ينبغي معرفتها .

(١) كصرة : كلمة عامية اصلها (قصره) معناها التقصير .

(٢) اسرا : اسراء ومعناها السير في ظلام الليل .
وقد حذفت الهمزة (قصر الممدود) ثم استبدلت الالف بهاء السكت مجانسه للقافية

(٣) ما : هنا اسم موصول معناها الذي .

احتفظت بالليرات الذهبية الخمس بعد فوزي بنقل رسالة الوالي وهي ثروة لأمثالي، وعلى عجل اشتريت لي داراً انيقاً قرب مسجد (يحيى ابو القاسم) لأكون قريباً من عملي وقريباً من المسجد الذي فيه تعلمت الحياة الرضيه الرحبة والعلم. ولا اقول الايمان ، فهو مغروس في اعماقي بلا جدال .

بعد ايام انتقلنا الى بيتنا الجديد انا واخوتي بفرحة، لا تخلو من الاسى على فراق حينّا الذي فيه ولدنا. وعشنا مع اهله الطيبين وعجبنا كيف كنا نعيش في تلك الدار التي هي اشبه بالزريبة . لكن الله سبحانه قد استودع فينا قابلية التكيف والتعايش مع الواقع بالرغم من تردّيه وهكذا الحروب والازمات ترفع اناساً وتضع اخرين وترفع مقادير البعض أو تخف موازينهم. ويتعامل الرجال بحقائق الافعال لا بالالقاب الموروثة او الاشكال والهيئات .

كفى الله أهل الموصل الشر إذ أتى
عَدوهم من جانب الشرق ناهض
أجل ملوك العجم نادر أسمه
ظلوم غشوم للمواثيق ناقض
سبى نِسوة السكان في البيد والقرى
بظلم وكل في المهَالك خائض
فحاربه الدستور والي ديارنا
حسين بعون الله ، وهو يناهض(١)

(١) قصيدة لأحد شعراء الموصل المحاصرين


شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة
موصل عراق

من القصة

أخرج من جيبه خمس قطع ذهبية من فئة الخمس ليرات... ووضعها في يدي وقال لي:-

إلحق غداً رجالي في حراسة قلعة "باشطابيا" حتى تكون قريباً مني. فأنت موصلي أصيل... والأصالة رجولة وإباء وشعور بالإنتماء، وليست بالوجاهة والإدعاء .....



صدر للمؤلف

1. الطب الوقائي في الاسلام.
2. السؤال الصعب.
3. لماذا نصلي؟
4. حقيقة العبادة.
5. رحلة النور.
6. التوحيد في الولاء والبراء.
7. فتى حلب.
8. التوحيد ومنهج الحياة.
9. ظاهرة الوحي.
10. النصر لمحمد ﷺ.
11. حوار في سوق السنك.
12. الاسلام هو الحل.
13. امراتان تختصمان.
14. إمراة من الشيشان.
15. الاسلام وعلم الغيب.
16. ادب الحوار.
17. رؤية قرآنية للاحداث.
18. من اجل ابنتي.
19. تطوير العقل المسلم.
20. ايمان الشباب.
21. في الطريق الى الايمان.
22. نجاة والشيخ.
23. نزغ الشيطان.
24. من اين نبدأ.
25. نحن قادة الحضارة.
26. عائشة بنت الجيل.
27. سر بكائي.
28. جيل الردع.
29. حوار مع الدكتورة هدى.
30. الهاجس المر.
31. الحرية في رحاب الايمان.
32. الندم.
33. شباب الجامعة.
34. اسير في قصر هرقل.
35. البناء الحضاري للأمة.
36. لواء البحر.
37. المسار.

مطبعة الزهراء بالموصل